مؤلف أديسون عن جبل مويا بالسودان

(Frank Addison: Jebel Moya. The Wellcome Excavations in the Sudan. Oxford Universtiy Press, 1949, 2 Vols).

فى عام ١٩١٠ بدأ السير هنرى ولكم Sir Henry Wellcome حفائره فى منطقة جبل مويا، على مقربة من سنار فى السودان ؛ واستمرت هذه الحفائر أربعة مواسم حتى توقفت فى عام ١٩١٤ ؛ وكان من عادة رئيس البعثة أن ينقل كل ما يخرج من الأرض إلى إنجلترا حتى بلغ ذلك أطنانا عديدة . وبالرغم من أن السير هنرى عاش حتى عام ١٩٣٦ ، فإنه لم ينشر نتائج حفائره فى حياته ، بل طلب فى وصيته أن يقوم المشرفون على إدارة ثروته الطائلة التى خلفها من بعده لتقدم الأبحاث العلمية بإتمام حفائره ونشرها نشراً علميا كاملا . وذكر فى وصيته أن يقوم الدكتور ريزنر بنشر الجزء الأثرى ، وأن يقوم الدكتور آرثر كيث بنشر التقرير اللازم عن العظام . ولكن كلا العالمين الكبيرين لم يتيسر لهما قبول هذا العرض ، وقام غيرهما بتنفيذ ذلك .

وإذا رجعنا إلى تاريخ هذه الحفائر ،وما اعترض طريقها من صعوبات منذ البدء فيها ، لا تمسنا العذر للمؤلف ومعاونيه، فإن السير هنرى ولكم كان يغير أكثر مساعديه فى كل موسم ، ومات بعضهم فى الحرب العالمية الأولى ومضت فترة طويلة مات فيها آخرون . ولم يكد العمل يبدأ بعد عام ١٩٣٦ فى حصر المعلومات ، وترتيب عشرات الأطنان من قطع الفخار والعظام والأشياء الأخرى ، حتى قامت الحرب العالمية الثانية، فحالت بين بعضهم وبين إتمام العمل . ولكن هذا كله لم يقل من عزيمة منفذى الوصية، وها هى ثمرة مجهود الذين قاموا بنشر الجانب الأثرى بين أيدينا . أما رغبة السير هنرى فى إتمام حفائره فقد صرف النظر عنها .

والكتاب الذى بين أيدينا ليس إلا ثمرة لمجهود عشرات ممن عملوا أثناء الحفائر ، ومجهود المؤلف ومن عاونوه ، وخاصة المستر كيرون الذى كان يحفر فى بلاد النوبة مع بعثة الحكومة المصرية قبل تعلية خزان أسوان الأخيرة،

والأستاذ لاكاى الذى يعمل فى متحف ولكم Wellcome التاريخى الطبى ، وبعض المساعدين الآخرين .

يقع جبل مويا فى الجزء الجنوبى من أرض الجزيرة ، بين النيلين الأبيض والأزرق ، على مسافة ثلاثين كيلومترا جنوبى سنار القديمة ، على مقربة من محطة السكة الحديدية المعروفة بهذا الاسم على الخط الموصل بين سنار وكوستى . وقد ظل العمل فى هذا الموقع طيلة المواسم الأربعة ، ولكن فى الوقت ذاته امتد نشاط بعثة الخفر إلى موقعين آخرين فى المنطقة ، وهما « سجدى » و « دار الملك » ، ولكن المؤلف الحالى اقتصر على نتائج حفائر جبل مويا فقط . والجزء الأول من الكتاب يحتوى على وصف الآثار والنتائج االعلمية ، أما الجزء الثانى فقد اقتصر على الصور الفوتوغرافية والرسوم .

فصول الكتاب :

والجزء الأول مقسم إلى تسعة فصول ، يليها سجل عام لمحتويات المقابر والمتاحف التى أهديت إليها ، ففى الفصل الأول نرى وصفاً للموقع نفسه ، وسير العمل ، فيه وتوضيح الطرق التى استعملها القائمون بالعمل لتسجيل الآثار ، ووصف المقابر ، مع مناقشة طبيعة الأرض من الناحية الجيولوجية . ويتناول الفصل الثانى وصفا عاما للمقابر المكتشفة التى يبلغ عددها ٢٧٩٢ ، بعضها للرجال وبعضها للنساء والقليل منها للأطفال . وأقدم المقابر التى عثر عليها الحفارون هى ما كان فيها جسم الميت على هيئة الجنين ، ومدفونا فى مقابر بيضاوية الشكل ، ولكن فى العصور التالية أخذ السكان يدفنون موتاهم فى الوضع الطبيعى ودون أن يراعوا اتجاها خاصا للرأس .

ومما هو جدير بالذكر أن قدماء سكان جبل مويا كانوا يدفنون موتاهم دون لفائف أو توابيت ، وكانت العادة أن يخلعوا القواطع من الفك الأسفل . وعادة خلع القواطع من الفك الأسفل أثناء الحياة مازالت مستعملة إلى الآن بين النساء والرجال على السواء فى بعض بلاد السودان الجنوبية ، مثل جبل تالودى وبين الأنواك والبارى والكوكو والنوير والدنكا والشلوك وغيرهم ، كما ثبت أيضاً أن بعض المدفونين كانوا يمارسون عادة نشر بعض الأسنان . ولم تخل مقابر جبل مويا من مدافن الحيوانات التى كانوا يقتلونها ويدفنونها

مع أصحابها أو على حدة وهذه . الحيوانات تنحصر فى البقرة والكلب فقط .

ومحتويات المقابر بسيطة وكانت توضع حول الجثة ، وأهمها جميعا بقايا الأوانى ، وأحجار الظران ، والخرز الذى كان فى العقود ، أو الأساور المصنوعة من الفخار والأحجار . ولكن أهمها وأعمها هى الحليات المصنوعة من الحجر أو الفخار أو العظم وأحيانا من الكوارتز أو العاج ، وكانت توضع فى ثقب فى الشفة . وقد أحضر السير « ولكم » من هذه الحليات الغريبة نحو ٢٨٠٠٠ قطعة تختلف أحجامها . وبعضها بلغ طوله نحو ١٣,٥ سم . ولكن لم تخل هذه المقابر من بعض الآثار الأخرى الصغيرة التى ربما جاءت إلى جبل مويا من مروى ، أو من نباتا ، وفيها أثر الفن المصرى ، مثل التمائم والجعارين وغيرها .

وفى الفصل الثالث من الكتاب وصف لبقايا المساكن التى عثروا عليها هناك ، وأهم ما فيها هى الأفران . أما الفصل الرابع فقد خصصه المؤلف للخرز والتمائم والجعلان والتعاليق . وبعض الخرز مصنوع من قشر بيض النعام . والبعض الآخر مصنوع من أحجار أخرى . وقد ظهر من فحص هذه الجعلان والتمائم المكتوبة أنها ربما جاءت من نباتا ، وأن تاريخها يرجع إلى هذا العصر أى بعد عام ٩٠٠ ق . م

أما الفصل الخامس ، فقد خصصه المؤلف للحليات والأسلحة والأدوات والتماثيل الصغيرة ، وفيه يتحدث عن حليات الشفاه والتى وجد أكثرها على سطح الأرض وفى الرديم . أما ما وجد فى المقابر ، فلا يزيد عن ١٠٥٨ فقط . وقد ناقش المؤلف طويلا هذه العادة وسببها وانتشارها الآن فى السودان . أما الحليات الأخرى فكانت من النوع نفسه للأذن ، وربما للأنف أيضاً ، كما ظهر من الحفائر أنهم كانوا يتحلون بأساور أكثرها من العاج أو العظم ، والقليل منها من الحجر أو الفخار أو النحاس أو الحديد . وكان استعمالها عاما بين الرجال والنساء .

وفى هذا الفصل أيضاً ذكر للتماثيل الصغيرة المصنوعة من الطين المحروق للحيوانات المختلفة والأشكال الإنسانية ، وناقش المؤلف وجه المفاضلة بين الرأى القائل بأنها من صنع الأطفال كدمى يلعبون بها ، وبين الرأى القائل بأنها كانت قرابين يقدمها القدماء لآلهتهم ، طلبا لرضاها أو اتقاء لما يجلبه غضبها من أذى .

وفى الفصل السادس وصف للأدوات المصنوعة من الأحجار، وأكثرها فؤوس أو مطارق أو أزاميل ورؤوس دبابيس للقتال، أو قوالب لعمل الخرز، أو حلقات للبسها فى الأذرع. ويرجح المؤلف أن هذه الأساور الحجرية — وبعضها مصنوع من أنواع صلبة لا يسهل كسرها — قد كسرت عمدا بواسطة أجسام ثقيلة أخرى، عندما يتقرر عدم استعمالها لغرض من الأغراض. أما الفصل السابع فمن وضع الأستاذ لاكاى، وقد تحدث فيه عن الآلات الظرانية، ومال فيه إلى القول بأن ثقافة سكان المنطقة الأولين تشبه غيرها من ثقافات العصر النيوليثى فى البلاد الأفريقية الأخرى، ومال إلى مقارنتها مع مثيلاتها التى عثر عليها فى مصر وفى شمال أفريقيا.

أما الفصل الثامن فقد خصصه للفخار، وقارن بين الفخار الذى ما زال يصنع فى بعض جهات السودان النائية إلى اليوم وبعض الفخار القديم الذى سبق للأثريين العثور عليه من عصور مروى ونباتا وفى بلدة كرمه. ويخرج المؤلف من بحثه الطويل بأن كل ما يستطيع قوله هو أن أقدم الأوانى يرجع تاريخها إلى ما قبل عام ٦٠٠ ق.م، والمتأخر منها يمكن نسبته إلى القرن الأول، أو ربما القرن الثانى بعد الميلاد. ولكنه يستدرك فيقول إن هذا البحث ما هو إلا بحث تمهيدى، وإنه لا يمكن وضع تاريخ ثابت للفخار أو للمنطقة بوجه عام إلا بعد أبحاث طويلة فى جبل مويا وفى غيرها من المناطق، وإنه يرى تاريخ هذا الفخار مشكلة ما زالت تنتظر الحل، ويختم الفصل بقوله: «إن أفريقيا ما زالت القارة الغامضة».

أما آخر فصل فى الكتاب، وهو الفصل التاسع، فهو عن تاريخ المنطقة والنتائج التى جاءت بها الحفائر، وهى لا تخرج عما أورده فى الفصول المختلفة.

والآن وقد انتهينا من عرض مواضيع هذا الكتاب ونتيجة هذه الحفائر، فإنه من الواجب عرض بعض الملاحظات:

(١) ردد المؤلف النظرية القديمة القائلة بأن ملوك أثيوبيا الذين أسسوا مملكة مروى وحكموا بعد ذلك مصر، وهم ملوك الأسرة الخامسة والعشرين، جاءوا إلى السودان من الصحراء الغربية حوالى ٩٠٠ ق.م. واستقروا فيها فاتحين (ص — ٢٤٩). ويستدل على ذلك بما سبق أن قاله مرة الأستاذ ريزنر منذ أكثر من ثلاثين عاما، مع أن الرأى العلمى السائد بين جميع العلماء أن

هذه الأسرة أسسها كهنة آمون الذين هاجروا إلى السودان عندما أراد ششنق الأول (الأسرة ٢٢) الحد من سلطانهم، ولهذا فإن مملكة نباتا ليست إلا فرعا من الدوحة الأصلية ، كما أن بعنخى وطهراقا وغيرهما من الملوك فى الجنوب لم يلقبوا أنفسهم إلا بألقاب الفراعنة ، وكانوا يعتبرون الملوك الذين فى الشمال مغتصبين لعرشهم الذى استرجعوه فيما بعد (الأسرة ٢٥) .

(ب) أنكر مؤلف الكتاب بقوة فى أكثر من موضع أن أقدم آثار جبل مويا يمكن نسبتها إلى عصر فجر التاريخ ، ويقول إن أقدم التمائم والجعلان والخرز لا يمكن نسبته إلا إلى عصر بين ٧٥٠ — ٥٥٠ ق.م . ولكن صناعة بعض أدوات الظران ، ومقارنة بعض الفخار بما وجده الأستاذ أركل فى جبانة الخرطوم وجبانة أم درمان فى الشمال ، تجعلنا لا نقبل هذا القول إلا بتحفظ ، بل مع الشك الكثير .

(ج) إن نتائج حفائر جبل مويا وخاصة الأوانى الفخارية ، عززت إلى حد كبير النظرية التى تقدم بها العالم النمساوى « ارنست تسيلهارتز » فى عام ١٩٢٨ عن أصل اللغة النوبية وهجرة المتكلمين بها ، وملخصها أن موطن هذه اللغة هو بلاد كردفان وليس على ضفاف النيل ، وأن الجنس النوبى كان ينقسم إلى قسمين يتكلم كل منهما لهجة خاصة . وقد هاجر أحد الفرعين إلى الغرب ووصل إلى النيل ، أما الفرع الثانى فبقى فى بلاده مدة طويلة ، ثم هاجر بعد ذلك إلى أرض الجزيرة فى السودان ، وكذلك فى جزيرة مروى ، ولكنه لم يصطدم حربيا مع أهلها . ويرى تسيلهارتز أن انتشار اللغة العربية لم يؤثر على الفرع الأول كثير ، ولكنه أثر على الفرع الثانى ، فأخذ المتكلمون باللغة الأصلية يقلون ثم أخذوا يتراجعون إلى الجنوب حتى انحصروا الآن فى جبال النوبة فى جنوب السودان ، بينما استمر أبناء عمهم فى الشمال ومنهم سكان بلاد النوبة جنوبى أسوان وحول وادى حلفا يتكلمون لغتهم إلى الآن .

ومن المحتمل جداً أن يكون سكان جبل مويا القدماء ممن ينتمون إلى الفرع الثانى ، وهذا يفسر لنا وجه الشبه بين فخارهم وفخار المزويين ، وكذلك الفخار الذى عثر عليه فى الخرطوم فخار النوبة الشمالية . وإذا رجعنا إلى بعض العادات التى كانت سائدة بين قدماء سكان جبل مويا ، مثل خلع القواطع السفلية ، ولبس الحليات الكبيرة فى الشفاه ، وتتبعنا استعمالها الحالى بين قبائل

السودان الجنوبية ، لأمكننا القول بأن هؤلاء الآخرين لا بد أنهم منحدرون من سلالة الأولين .

(د) ولكن كل هذه المناقشات لم تحل المعضلة الأصلية ، وهى من أين جاءت حضارة سكان جبل مويا القدماء ؟ . هل جاءتهم من الغرب ، أم جاءتهم من الشمال ؟ ومؤلف الكتاب يميل إلى القول بأنها جاءت من الغرب ، ويريد أن يصل إلى هذه النتيجة من القول بمشابهة أدوات الظران النيوليتية التى عثر عليها السير هنرى ولكم بما نعرفه من أمثالها التى جاءت من غرب أفريقيا ، أو من كردفان ، أو من الصحراء الكبرى . ولكنه يعود فى مكان آخر (ص٢٥٩) ويقول بأن هذه النتيجة ليست مبنية على دليل حقيقى ، بل يزيد على ذلك فيقول بأنه لا يظن أن هناك دليلا أثريا يسلم من الشك يؤيد ما ذهب إليه . ونحن من جانبنا نوافقه على النتيجة الأخيرة التى وجد نفسه مضطراً إليها . ففى الواقع إذا كان هناك دليل على صلة ثقافية بين سكان جبل مويا القدماء وغيرهم ، فإنه يجب أن ننظر إلى الشمال ، وأن ندرس آثار سكان جبل مويا وعاداتهم فى ضوء صلة شمال وادى النيل بجنوبه وأثر حضارة الجنوب على الشمال ، فإن هذا أجدى بكثير ، وخصوصاً بعد أن بدأت الحفائر فى منطقة الخرطوم وأم درمان ، وثبتت صلة ما جاء منها من آثار بما سبق العثور عليه فى مراكز الحضارتين النباتية والمروية وفى دنقلة وفى بلاد النوبة .

(هـ) وهناك ملاحظة أخيرة — إن التصريح بحفائر السير هنرى ولكم أعطى له فى عام ١٩١٠ من مصلحة الآثار المصرية بالقاهرة ، وانتهت الحفائر عام ١٩١٤ وكان المفروض أن تتم قسمة الآثار فى نهاية موسم الحفائر . ولكن مصلحة الآثار جاملت القائمين بأمر هذه الحفائر ، فلم تطبق القانون فيما يختص بالقسمة ، وسمحت بشحن الآثار كلها إلى إنجلترا للدراسة ، وليس من شك فى أن نصف هذه الآثار كان يجب أن يؤول إلى الحكومة المصرية ، لأن هذه الحفائر قد انتهت قبل أن تنشأ إدارة الآثار السودانية بعد عام ١٩٢٤ .

وكنا نود أن يتذكر ذلك القائمون بأمر هذه الآثار ، فيرسلون إلى المتحف المصرى بعضا منها ، فإننا لو فهمنا تفضيلهم لمتحف الخرطوم أو المتحف البريطانى أو معهد الآثار بلندن أو الأشموليان بأكسفورد أو متحف بيت ريفرز فى المدينة نفسها أو متحف جامعة كمبردج ، فإنه يصعب علينا فهم

السبب فى تذكرهم متحف الإنسان بباريس ، أو متحف بيبودى فى ولاية ماساتشوتس بأمريكا أو متحف أونتاريو بكندا ، أو متحف كورنيدون بنيروبى فى كينيا ، ونسيانهم المتحف المصرى بالقاهرة .

وقبل أن أختم هذا التعريف أود أن أذكر أنه مهما كان رأى العلماء فى بعض ما جاء على صفحات هذا الكتاب من آراء ، فإننا نحمد للقائمين بأمر تركة السير هنرى ولكم نشر نتيجة الحفائر ، كما أننا نقدر كل التقدير المجهود الذى بذله المستر فرانك أديسون ومعاونوه فى نشر نتائج حفائر لم يقم بها واحد منهم ، وكانت تنقصهم فى أكثر الأحيان المعلومات الضرورية عن الآثار التى عثر عليها لتحديد صلة بعضها ببعض .

ويكفينا أن يكون ما جاء فى هذا الكتاب من معلومات ومن صور فوتوغرافية ورسوم بين أيدينا ، ليساعدنا فى تفهم حضارة الجزيرة فى السودان فى هذا العصر البعيد ، والمقارنة بين ثقافة سكان جبل مويا القدماء والثقافات الأخرى فى السودان ، ثم الصلة بينها وبين الثقافات الأخرى التى كانت فى مصر فى ذلك العهد .

أحمد فخرى